

العبد يحتقر عمله أمام نعم الله عليه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأسعد الله أوقاتكم بكل خير. بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، صلى الله وسلم على أشرف المرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإني أستغفر الله من أن أكون عند الناس -أعوذ بالله أن أكون في أعين الناس- كبيراً، وعنده صغيراً، وأقول كما قال الشاعر القحطاني: والله لو علموا بقبح سريرتي لأبني السلام علي من يلقاني ولأعرضوا عنِّي ولملوا صحيقي ولبيت بعد كرامة بهوان وأقول كما قال أبو بكر -رضي الله عنه- اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. ولا أحب أن أواجه بمثل هذا الإطراء وهذا الرفع، فلسان الحال يقول: أنا العبد الذي كسب الذنوب وص遁ة الأمانى أنا يتوب فأننا: لي ذنب شغلتنى عن صيامي وصلاتي تركت جسمى على مات من قبل وفاتي ليتنى بيت لربى من جميع السينات أنا عبد لإلهي مغضب في الخلوات قد توالى سيناتي وتلاشت حسنتاتي أستغفر الله من صيامي طول زمانى ومن صلاتي صوم يرى كلها خروق وصلة أيما صلاة أنها الأخوة، لا شك أن كلًا من عليه ذنب، وعليه خطايا، وأننا بحاجة إلى أن نستغفر ربنا، وأن نتوب إليه، ولو عمل أحدنا ما عمل، ولو أتى بأمثال الجبال من الحسنات فإنه لا بد وأن يستقبل عمله، ولا بد أن يتمنى أنه تزود. كما ورد ذلك في حديث أنه: ما من أحد يأتيه أجله إلا تمنى أن يرد إلى الحياة؛ إن كان مسيئاً تمنى أن يرد حتى يتوب، وإن كان محسناً تمنى أن يزود من الحسنات؛ وذلك لأنه مهما عمل من الحسنات فإنها قليل بالنسبة إلى فضل الله تعالى عليه، وبالنسبة إلى ما تفضل الله به تعالى عليه من النعم التي لا تحصى، والأيادي التي لا تستقصى. روي في بعض الأحاديث أن الله تعالى يحضر رجلاً، وله حسنات أمثال الجبال فيقول: {أدخلوه الجنة برحمتي}. فيقول: يا رب: أليس بأعمالى هذه؟ فيقول الله: حاسبوا عبدي على نعمي عليه. فيحاسب على نعم الله فلا يبقى له من عمله شيء. فيقول الله: أدخلوه النار. فيقول: يا رب بل برحمتك أدخل الجنة. فيدخله الله الجنة برحمته. } . مهما كانت الأعمال، ومهما كانت الحسنات، فإنها قليلة بالنسبة إلى نعم الله سبحانه وتعالى؛ حيث تفضل على عباده بما أسدوا عليهم من الفضل الكبير؛ فهو حاسبه على نعمة البصر ما يقي له من عمله شيء، ولو حاسبه على نعمة السمع، ولو حاسبه على نعمة البطش، ولو حاسبه على نعمة المشي، وعلى نعمة الأمان، وعلى نعمة الصحة، وعلى نعمة المال، وعلى نعمة الأولاد، وعلى نعمة الهدایة: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعَمَّا اللَّهُ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ إِنْسَانَ لَظَلَّوْمٌ كَفَّارٌ} . وأصرح من ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم- {لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله}. قالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل } . هذا مع ما معه صلى الله عليه وسلم من كثرة الاجتهد في العمل، وكثرة الصالحات، وما تفضل الله تعالى به عليه. فقد كان صلى الله عليه وسلم يقوم الليالي حتى تفطرت قدماه، فيقيل له: أفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: {أفلا أكون عبدًا شكوراً} -اللهم صل وسلم عليه- {أفلا أكون عبدًا شكوراً} يعني: أن من شكر الله تعالى أن يأتي العبد بما يستطيعه من الأعمال الصالحة، مهما عمل فإنه سوف يستقله، وسوف يتمنى أن يعاد إلى الدنيا حتى يتزود. فنقول: وصيتنا لكل عبد مسلم، وصيتنا لكل من هداه الله تعالى: لا يمدح نفسه ولا يزكيها، ولو عمل ما عمل؛ فكثير من الناس إذا نصحته وقد رأينا منه نقصاً أو خللاً يقول: أنا أصلي مع الجماعة، أنا أحافظ على الصلاة، فيدخل في تركة النفس التي ذمها الله تعالى، ونهى عنها. لا شك أن هذا من التزكية التي قال فيها ربنا: {فَلَا تُرْكِّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ آتَى} أي: لا تمدوا أنفسكم؛ بل احتقروا أعمالكم مهما كانت واستقلوا بها؛ حتى تستكثروا، وحتى تتزودوا. واعتبروا على أنفسكم بكثرة الخطايا؛ فإن الإنسان يكتسب خطايا كثيرة دائمًا؛ يكتسب خطايا بلسانه وهو لا يشعر؛ يكتسب خطايا بقلبه، بما يحدث به قلبه، يكتسب خطايا ببصره، أو بسمعه، أو بيده، أو بقدميه، أو يكتسب في ماله، أو يكتسب بتساهله في أمر الله سبحانه وتعالى، وكلها تكتب عليه؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: {أَخْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} يعني أنه إذا أحضر للأعمال وحوسب عليها وجد ربنا سبحانه وتعالى قد أحصى عليه مثاقيل الذر، فيندم حين لا ينفعه الندم، ويتمنى أنه استعتب، وأنه تاب واستغفر، ولكن عندما لا ينفع الندم، عندما يقرب الأجل، مما دام الإنسان في هذه الحياة الدنيا فإن عليه أن يستكثر من الحسنات، وما أكثر الوسائل التي إذا عملها العبد زيد بها في حسناته، وكفر بها عن سيناته. ولقد وردت الأدلة الكثيرة في ذكر عقوبات الله تعالى على السينات وعلى المخالفات، وكذلك أيضًا ذكر الله تعالى لما أنزله بالعصاة؛ أنزل بهم العذابات، وأنزل بهم العقوبات؛ لأجل أنهن نقصوا من حسناتهم، وزادوا في سيناتهم، وتمادوا في الغفلة، وأكثروا من المخالفات، فأحصاه الله تعالى ونسوه، وحاسبهم عليه، ونشره لهم في يوم القيمة، عندما يقرأ أحدهم كتابه: {وَيَقُولُونَ يَا وَلَيْتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادُرُ صَفِيرَةً وَلَا كَيْرَةً إِلَّا أَخْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} .